الإسلام والمسيحية والتعددية

obeikandl.com

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

٧ أ شارع فريد سميكة - مصر الجديدة - أمام نادي الشمس
تليفون وفاكس: ٢٦٤٣٢٤٨٨ - ٢٢٤٠٤٨٦٨
٠١٠١٦٣٣٧١٨ - ٢٢٤١٥٨١٦

E-mail: shoroukintl@hotmail.com
shoroukintl@yahoo.com

حقوق الطبع للنسخة الإنجليزية من هذه المحاضرة محفوظة
لجمعية علماء الاجتماع المسلمين ببريطانيا

obeikandl.com

الإسلام والمسيحية والتعددية

د. روان ويليامز
رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليكانية

ترجمة
د. جاسر عودة

مراجعة وتحرير
د. بسام الساعي

مكتبة الشروق الدولية

obeikandl.com

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية

الفهرسة أثناء النشر

(بطاقة فهرسة)

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

ويليامز، روان.

الإسلام والمسيحية والتعددية / روان ويليامز؛ ترجمة جاسر عودة؛ مراجعة وتحرير بسام الساعي.ـ ط ١ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٠م.

٤٠ ص؛ ١٤×٢٠سم.

تدمك 978-977-701-037-5

١ - الديانات المقارنة. ٢ - الإسلام والمسيحية.

٣- المسيحية والديانات الأخرى.

أ ـ عودة، جاسر (مترجم). ب ـ الساعي، بسام (مراجع وتحرير).

جـ- العنوان.

٢٩١

رقم الإيداع ٢٠١٠/٢٣٦٣١م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-701-037-5

obeikandl.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٩
الإسلام والمسيحية والتعددية	١٣
مصطلح التعددية	١٤
معنى قرآني للتعددية	١٦
تعدد الآراء حول علاقة العقل بالوحي	١٧
خلاف لابد منه	١٧
التعددية الاجتماعية	١٨
الإسلام نظام متكامل	٢٠
إسهامات هامة	٢٠
قضية (الولاء)	٢١
(الولاء للوطن) مفهوم حديث	٢٢
الولاء للأمة	٢٣
دار الحرب ودار الإسلام	٢٥
تعددية المجتمع المدني	٢٦

obeikandl.com

شرعية الدولة ٢٧
معاني التعددية ٢٨
الصبر على الدين ٣٠
عمل مشترك بين المسلمين والمسيحيين ٣٣
مواطنة ذات مسؤولية دينية ٣٥
الله والتاريخ ٣٥
الأصولية المسيحية ٣٧
خاتمة ٣٩

obeikandl.com

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات:١٣].

«وَقَدْ أَخْرَجَ الشُّعُوبَ جَمِيعًا مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، وأَسْكَنَهُمْ بِلَادَ الْأَرْضِ كُلَّهَا، وَحَدَّدَ مُسْبَقًا أَزْمِنَةَ وُجُودِهِمْ وَحُدُودَ أَوْطَانِهِمْ، لِكَيْ يَبْحَثُوا عَنِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَتَلَمَّسُونَهُ فَيَهْتَدُوا إِلَيْهِ! فَإِنَّهُ لَيْسَ بَعِيدًا عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا» (سفر أعمال الرسل ١٧: ٢٦-٢٨).

obeikandl.com

مقدمة

هذه هي المحاضرة الأولى في سلسلة المحاضرات السنوية التي تُعقد في ذكرى الشيخ زكي بدوي، وفيها قدَّم الدكتور روان ويليامز رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليكانية محاضرة قيِّمة وشديدة العمق حول التعددية، وهو موضوع يطرح الآن تحديات ملحة على أهل الديانات كلها على حد سواء.

بدأ الدكتور ويليامز محاضرته ببيان أن مصطلح التعددية يتداول كثيرًا هذه الأيام دون تفريق واضح بين مدلولاته المتعددة. ثم أعطى ثلاثة معانٍ لهذا المصطلح ودلالات هذه المعاني لكلٍّ من المسيحيين والمسلمين.

ثم ناقش الدكتور ويليامز المعنى الأول لتعددية الأديان، ولم يتردد في القول بأن هناك خلافًا حتميًّا، وحوارًا لا مفر منه، ومفاوضات، وتجاذبًا بين أعضاء الأسرة الإبراهيمية، وصرَّح بأننا جميعًا يجب أن نشكك في نوايا الذين يدَّعون أن الخلاف بين أتباع الأديان يمكن أن ينتهي فجأة بانتماء الجميع إلى عقيدة واحدة مشوَّهة وغامضة تقضي ـ ببساطة ـ على الاختلاف عن طريق التنازل عن ثوابت كل دين.

وأكد الدكتور ويليامز، مستشهدًا بالنص القرآني المعروف الذي يعتبر التنوع جزءًا من المقاصد الإلهية في الخلق، أن الاعتراف بخصوصية كل دين سوف يؤدي بنا إلى فهم أفضل ونقد للذات، وبالتالي إلى نظرة أكثر عمقًا للأديان.

ومن خلال حديثه عن المعنى الثاني للتعددية أي «تعامل النظام الاجتماعي والقانوني مع جاليات دينية متنوعة»، طرح الدكتور ويليامز رؤية أخلاقية واضحة ومطلوبة جدًّا في مسألة الولاء، وهي مسألة ـ كما أشار ـ يساء فهمها بشكل كبير في هذه الأيام، ووصل إلى نتيجة ذات دلالة، وهي أنه لا بد للولاء للمجتمع الذي نعيش فيه من أن يؤوّل ويتطور ويمتحن من خلال ولائنا المبدئي لله، عندها فقط نصبح أمثلة تحتذى للمواطَنة المسؤولة دينيًّا.

والمعنى الثالث الذي تطرَّق إليه الدكتور ويليامز لكلمة التعددية هو، في سياقها السياسي، ما كان ضد الهرمية والمركزية في النظام الاجتماعي ويتحدى الرؤية القمعية وغير القابلة للنقد لسلطة الدولة المطلقة، وهي الرؤية التي تدعي السلطة الكاملة للدولة. إنّ الثقافة التعددية الحقيقية تقتضي أن الشرعية لا تُمنح من أعلى لأسفل من قبل دولة سيادية تمتلك كل السلطة، بل على العكس من ذلك تستمد الدولة شرعيتها حين تنجح في إدارة العلاقة بين مؤسسات المجتمع المدني المختلفة، وبين المجتمعات الدينية، وما بينهما من المجتمعات البشرية.

ويعطي تحليل الدكتور ويليامز، الدقيق والمهم، لمفهوم التعددية رؤية عميقة للمخلصين من أتباع الديانتين المسيحية والإسلام. والأفكار

العميقة التي طرحها تقدم رؤية أخلاقية واجتماعية تحث المسلمين والمسيحيين على المضي قدمًا في حوار أديان بنَّاء وقائم على الاحترام المتبادل بغرض الوصول إلى الحقيقة، وتحث الجميع كذلك على المشاركة الفعَّالة في ازدهار المجتمع عن طريق الالتزام التام والمشترك بالحفاظ على ما يسميه «المظاهر الدينية في الحياة العامة».

ولا تعني هذه الرؤية ـ بالطبع ـ فرض دولة دينية على الناس، بل تؤكد، حسب تعبير الدكتور ويليامز، على الجذور الدينية لرؤية أخلاقية واجتماعية، وهي رؤية تقاوم التصور الخاطئ الذي يقول إن الوضع الطبيعي في أي مجتمع متقدم هو أن يُبنى على العلمانية ويطمس بقوة مظاهر الالتزام الديني.

وستكون دعوة الدكتور ويليامز لإظهار الشعائر الدينية في مجالات الحياة العامة بمثابة حافز للمؤمنين من أهل الديانات جميعًا لكي يساهموا بشكل كبير في الحفاظ على القيم الروحية والأخلاقية التي هي أساس أي مجتمع سليم.

* جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في بريطانيا. * قصر لامبيث، لندن.

obeikandl.com

الإسلام والمسيحية والتعددية

لقد كان الشيخ زكي بدوي أكثر من مجرد خبير يلجأ إليه المرء في الأوقات العصيبة بحثًا عن رأي سديد أو نصيحة صادقة، فقد كان صديقًا حقيقيًا بالنسبة لي وبالنسبة إلى الكثيرين من أعضاء كنيستي، وليس صديقًا فحسب، بل مصدر إلهام أيضًا. إنه من ذلك النوع من الأشخاص الذين تنبع طبيعتهم وعمقهم ودفؤهم الإنساني من طبيعة صلتهم بالله. كان هذا واضحًا في كل ما كان يقوله هذا الرجل أو يفعله. وكان تواجده معنا في مكان واحد مصدر سعادة لنا جميعًا وانفتاحًا على احتمالات جديدة يفتح هو أبوابها بفضل الله.

ولذلك، فإني أقدم محاضرتي اليوم لشعوري بالعرفان الشخصي العميق لذكراه، وكذلك لاعتزازي بأنكم اخترتموني لإلقاء محاضرة في هذه المناسبة. وتملأني مشاعر غامرة بالشكر لزوجة الشيخ الراحل (الليدي مريم بدوي) وأفراد أسرته لحضورهم معنا الليلة.

مصطلح التعددية

يستخدم مصطلح التعددية كثيرًا هذه الأيام ـ وبدرجة عالية من العشوائية ـ ليصف المجتمع الذي نعيش فيه، ولكنه ـ مثل الكثير من المصطلحات التي شاع استخدامها اليوم ـ يزداد غموضًا كلما تعمقنا فيه.

وأرغب من خلال الملاحظات التي أطرحها الليلة أن أفرق بين ثلاثة معانٍ أو استخدامات لمصطلح «التعددية»، وأن أحاول استكشاف ردود الفعل المختلفة التي قد يظهرها المسيحيون والمسلمون على حد سواء لهذه المعاني الثلاثة.

باختصار، أعتقد أن هناك معنى واحدًا من معاني التعددية ينبغي أن ينظر إليه المسيحيون والمسلمون على حد سواء بحذرٍ وقلق، كما يوجد معنى ثانٍ للكلمة تناوله أصحاب الديانتين بطريقتين مختلفتين تمامًا، ولكنهم مطالبون بأن يدرسوه بشكل أكثر عمقًا ومتابعةً وإلحاحًا. وأعتقد أن هناك معنى آخر يمكن للجميع الاتفاق على فائدته العملية وعلى الفرص البناءة التي يتيحها لنا جميعًا في المستقبل. واسمحوا لي بأن أفصِّل هذه المعاني الثلاثة التي يمكن أن تستخدم للتعبير عن مصطلح التعددية.

أول هذه المعاني هو التعددية الدينية. ومن كان منا على دراية بالدراسات اللاهوتية والدينية يعلم أن المواقف حول تعددية الأديان في هذا العالم الإنساني تندرج تحت ثلاثة مواقف: حصرية، أو احتوائية،

أو تعددية. فأصحاب الموقف الحصري يؤمنون أن هناك دينًا واحدًا فقط ـ هو دينهم ـ وهو الدين الحق، وأن ما عداه من الأديان باطل. أما الاحتوائيون فيرون أن دينهم حق وأن الأديان جميعًا متضَمنة داخل إطار دينهم بشكل أو بآخر، على حين يعتقد أصحاب الموقف التعددي أن كل الأديان حق دون أي استثناء.

وأعتقد أن على المسلمين والمسيحيين على حد سواء النظر إلى التعددية الدينية بالكثير من الحذر. ففكرة أن «جميع الأديان متساوية وكلها طرق مختلفة تؤدي إلى الله» من شأنها أن تثير صعوبات جمَّة خاصة عند المسيحيين والمسلمين، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار المشاعر القوية التي يشعر بها أهل كلٍّ من الديانتين إزاء الخصوصية التاريخية لأصول ديانتيهم والمهمة التبشيرية الواجبة عليهم والمتجسدة في ممارساتهم الدينية.

وربما كان موقع هذا النوع من التعددية في الدراسات الدينية يعود أكثر من أي شيء آخر إلى ما يسمى بـ«المسيحية الليبرالية» التي ظهرت في نهايات القرن العشرين، ولكن ستجد هناك من وقت لآخر بعض المسلمين الليبراليين، ممن كوَّنوا لأنفسهم آراءهم الخاصة، ينادون بالمعنى نفسه للتعددية الدينية.

وهؤلاء وأولئك قلة قليلة على أية حال. ولكن الغالبية العظمى منا، نحن المنتمين إلى هاتين العائلتين الدينيتين، يؤمنون بأن هناك نقاط خلاف جلية بين العقيدتين. وهذا الخلاف ناتج بالتحديد عن الإحساس بثقافة وتقاليد وأحداث تاريخية تقاسمناها، وهي الأكثر إيلامًا، وكذلك، لو نظرت إليها من الناحية الأكاديمية، هي الأكثر أهمية والأشد استدعاءً للبحث والاستكشاف.

وهنا سأستخدم عبارةً طالما استخدمتها في مثل هذا السياق، وهي أن المسيحية والإسلام، وكذلك اليهودية، هي فصول من قصة «خلاف عائلي» طويل بين أعضاء الأسرة الإبراهيمية. وكما هو الحال في أية خلافات عائلية فإنها قد تبدو مريرةً أحيانًا، ولكن، كما في أي خلاف عائلي أيضًا، تبقى هناك قواسم وأرض مشتركة بين سكان البيت الواحد.

ولكنني لا أؤمن أبدًا بأن إنكار الخلاف بين الأديان مفيد في حوار الأديان. بل على العكس، فأنا أرى أن من الغرور أن أقول لك: «دعني أشرح لك ما تعنيه بعقيدتك»، ويسوؤني جدًّا هؤلاء الذين يرفعون شعار التعددية الدينية، ثم يشرحون، وبلا أدنى تردد، لكل مؤمن في كل دين بهذا العالم ماذا يعني دينه. إن الاعتراف بالخلاف بين الأديان لا يتعارض مع الاحترام العميق المتبادل، ولا يتعارض مع الالتزام بالحوار مهما كان صعبًا، كما لا يتعارض مع التعايش السلمي.

لقد كان الشيخ زكي مثالًا يحتذى لهذه المعاني من الاحترام العميق للتقاليد الدينية المختلفة، وللالتزام بالحوار المستمر، وللمساهمات الفريدة بالتعايش السلمي اجتماعيًّا وسياسيًّا.

معنى قرآني للتعددية

إنني مطلع على الجدل الدائر بين العلماء المسلمين حول تفسير مقاطع مختلفة من القرآن فيما يتعلق بدور ومكانة الأديان التي مهدت لرسالة الوحي، وهو جدل حول مدى الوضوح والدقة اللذين يجب أن تعبِّر بهما عن عقيدتك من أجل أن تكسب رضا الله في الآخرة. فهناك كما يبدو

إقرار شكلٍ ما من التعددية داخل إطار النص القرآني نفسه. وتذكِّرنا الآية المعروفة التي تبين لنا أنه لو شاء الله لجعل الناس أمةً واحدة[1] بأن الاختلاف ووجود الآخر هو حقائق وسنن مقصودة عند الذات الإلهية، وتعلمنا كذلك أن الناس يختلفون فيما يمكنهم أن يستوعبوه ويتعلموه حسب زمانهم ومكانهم وقدراتهم.

تعدد الآراء حول علاقة العقل بالوحي

وأفهم أيضًا أن هناك خلافًا بين العلماء المسلمين حول علاقة العقل بالوحي، ولأي مدى يكمِّل الوحي ما يمكن أن يصل إليه العقل، ولأية درجة يرتقي الوحي إلى ما لا يمكن للعقل البشري الوصول إليه. وأنا مطلع على النقاش الفكري الحارّ الذي دار في العصور الوسطى حول هذه الأمور بين المدارس الفكرية الإسلامية المختلفة. وتذكِّرنا هذه السجالات بما سبق أن ذكرناه في هذه الأمسية من أن العالم الإسلامي ليس عالمًا ذا صورةٍ واحدة من الناحية الفكرية أو السياسية.

خلاف لا بد منه

ولكن ما دام المسيحيون أو المسلمون أوفياء للأصول التاريخية لدينيهما، وما داموا متفقين جميعًا على أن إيمانهم بالله يقتضي أن يقدموا للعالم الحكمة والخلاص، فسيظل هناك خلاف وحوار وجدل لا مفر منه بين فروع أسرتنا الإبراهيمية. ويقودنا هذا الخلاف والنقاش مع الآخر إلى فهم أفضل وإلى نقد للذات، مما سيجعلنا أكثر تعمقًا في فهمنا لديننا

(١) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]. ـ المترجم.

بدلًا من المساومة عليه والزهد به. وأنا أرى أن ذلك النوع من الحوار بين الأديان الذي كان الشيخ زكي بدوي مساهمًا بارزًا فيه هو أكبر مثال على هذا النقاش البنَّاء. وإذًا لا بد أن نتوخى جميعًا الحذر من التفسير الأول للتعددية، ذلك الفهم الذي ينادي بأن نختزل ديننا ليصبحا وحدة هلامية مبهمة الملامح.

نحن جميعًا نزداد نضجًا حين نختلط بالآخر. ننمو ونتطور بشكل رائع حين نتعامل مع ذلك «الآخر السماويّ» الذي يخاطبنا ويحركنا ويحاكمنا ويتحدَّانا ويداوينا، كما نتطور وننضج حين نتعامل مع أولئك الآخرين الذين يجعلوننا، باختلافهم عنا، نتعلم عن الله أشياء ما كنا لنتعلمها إلا من خلالهم.

التعددية الاجتماعية

وأنتقل الآن إلى المعنى الثاني الذي قصدته من معاني التعددية، وهو الأكثر استخدامًا في النقاش الذي يدور في مجتمعنا اليوم. إذ تتحدث التعددية هنا عن نظام اجتماعي أو قانوني يتعامل مع جاليات من مذاهب متعددة دون أن ينسب نفسه لأيٍّ منها. وهذا هو المعنى الذي يقصده الناس حين يتحدثون هذه الأيام عن المجتمع التعددي الذي نعيشه في بريطانيا أو في غرب أوروبا بشكل عام.

نحن لا نعيش في مجتمع يتمتع فيه دين واحد بأولوية وامتياز واضحين. ومهما يمكن أن يقال عن الأصول التاريخية للمسيحية في هذا المجتمع؛ ما زال هناك الكثير من الصحة بأن المسيحية إنما فرضت أو اختيرت لهذا المجتمع بنصِّ القانون وليس أكثر.

وعلى الرغم من أنني لا أقلل من صعوبة المشكلات الناتجة عن وضع المسلمين الهشّ أمام الحماية القانونية في هذا البلد، إلا أنني أرى أن من الحق أن نقول إننا مجتمع تعددي تتعايش فيه الجاليات والديانات المختلفة جنبًا إلى جنب، وتتساوى ضمن نظامه القانوني والاجتماعيِّ.

وقد تعامل الباحثون المسيحيون والمسلمون، على حدٍّ سواء، في الماضي والحاضر مع هذا الشعور بكونهم أقلية، وتأقلموا معه بطرق مختلفة. ففي التاريخ المسيحي هناك سابقة قديمة وممتدّة عَرَّفَ المسيحيون أنفسهم فيها كأقلية منفصلة عن المجتمع. فقد كانت المسيحية في عصرها الأول تشكّل جاليةً اضطُهدت بشدة من قبل الإمبراطورية الرومانية وعلى مدى قرون عديدة.

وفي العصور الوسطى، عندما تجاوزت المسيحية مرحلة الأقلية في أوروبا، ظل المسيحيون وسط تنازع عليهم بين مؤسسة كهنوتية عالمية أملت قوانينها المقدسة على جميع مسارات الحياة، وبين حكومات الممالك المختلفة التي شهدتها العصور الوسطى والتي مارست على الناس سلطاتها وأنظمتها القانونية المختلفة. وقد تحدث مارتن لوثر في عصر الإصلاح الديني عن مملكتين تحكمان الناس، مملكة الإنجيل ومملكة القانون. ومملكة القانون هذه كان الحاكم فيها هو مسؤولي الدولة، ولم تكن لها علاقة ألبتة بمملكة الإنجيل لاعتبارات متعددة ومهمة. بتعبير آخر، ورث المسيحيون قرونًا عديدةً من «الازدواجية الاجتماعية»، فقد اعتبروا أنفسهم كيانًا مختلفًا عن النظم السياسية والاجتماعية السائدة، تلك النظم التي كان لها اليد العليا في مجتمعاتهم، ولهذا خدعوا أنفسهم

مرارًا حول هذا الأمر، ولكن هذا على أية حال هو ما أوردوه من أسباب تاريخية، وبذلك اعتبرت الكنيسة نفسها كيانًا يعيش صراعًا أبديًّا مع كل نظام اجتماعي بشري يمكن تصوُّره.

الإسلام نظام متكامل

ولكننا إذا نظرنا إلى الإسلام وجدنا هذا الصراع أكثر وضوحًا، ذلك لأن الإسلام لم يظهر على هيئة دين بالمفهوم الشائع والمغلوط للدين في يومنا هذا، والذي يحصر الدين في كونه سعادة فردية. فالإسلام ليس دينًا يمكن أن تمارسه في وقت فراغك، بل هو نظام متكامل للفهم والتعامل والحكم أيضًا، نظام يجدد المجتمع كله ويغيِّره، ولذلك فليس من السهل أبدًا على المسلمين أن يتقبلوا ببساطة أية فكرة تعتبرهم أقلية منعزلة عن المجتمع، وسيبقون كذلك إلى أبد الدهر، ذلك لأن نظام المجتمع نفسه هو داخل الدائرة التي يعمل فيها الإسلام وليس خارجها.

ولكن السؤال هو: ماذا يعني ذلك في الواقع العملي؟ وهو سؤال يؤدي إلى نقاشات عديدة أتابعها كإنسان غير مسلم بالكثير من الدهشة والإعجاب.

إسهامات مهمة

وتحضرني هنا بعض أعمال الصديقة والزميلة مليحة مالك، بالإضافة إلى ما كتبه دلوار حسين وبوبي سعيد وكثيرون غيرهم[٢]. كل هؤلاء

(2) *British Muslims : Loyalty and Belonging*. Proceedings of a Seminar Held on 8th May 2002. Edited by Mohammad Siddique Seddon, Dilwar Hussain and Nadeen Malik (Leicester: Islamic Foundation, 2003).

قدَّموا لنا مؤخرًا سجالات مركزة جدًّا حول آرائهم في هذا الموضوع، وخاصة حول موضوع الخلفية التاريخية لفكرة ولاء المسلمين للدولة غير المسلمة، ومؤشرات هذا الولاء والتفاعل مع هذه الدولة في الوقت الحاضر. فعلى سبيل المثال؛ كتب امتياز أحمد حسين عن الخلفية التاريخية لشروط الأقلية عند المسلمين[٣]، شارحًا بطريقة مفصَّلة ومثيرة جدًّا للاهتمام القصة المعروفة عن هجرة المسلمين إلى الحبشة، وهو بهذا يطرح منهجًا جديدًا يؤصِّل النقاش الحالي حول هذه القضية.

ولكن السؤال الأكبر حول معايير انخراط الأقلية المسلمة في مجتمعنا يحفز نقاشات ستستغرق وقتًا طويلًا، وساهمت فيها الكثير من العقول المفكرة من الجالية المسلمة البريطانية. ويسعدني أن أرى العديد من هؤلاء المفكرين بين الحضور الليلة، ومن ضمنهم محمد سدون الذي عالج هذا الموضوع في كتاباته بالكثير من التميز والقوة. ويسعدني أن أعبِّر عن امتناني لما تعلمته منه ومن الذين شاركوه بالكتابة في هذا الموضوع.

قضية الولاء

وغالبًا ما تذكِّرنا عناوين الصحف وقصصها المثيرة حول قضية «الولاء» عند المسلمين بأهمية البحث والحوار في طبيعة العلاقة بين المسلمين والمجتمع غير المسلم الذي يعيشون فيه. وأريد أن أتوقف قليلًا هنا لكي أتحدث عن موضوع الولاء، وهو الموضوع الذي يسبب سوء تفاهم شديدًا في واقعنا الحالي. يقال لنا إن غالبية المسلمين في مجتمعنا

(٣) المصدر نفسه.

يعتبرون أنفسهم مسلمين قبل أن يكونوا بريطانيين. وأنا بدوري أتمنى أن يعتبر غالبية المسيحيين في هذا البلد أنفسهم مسيحيين قبل أن يكونوا بريطانيين، إذ يبدو لي من الأهمية بمكان أن أوضح الطرق المختلفة التي نتكلم بها عن الولاء في هذا المجال، ففي رأيي أن على الملتزم الحقيقي بدينه أن يضع ولاءه وطاعته ومسؤوليته نحو الخالق فوق جميع الاعتبارات.

وهذا لا يعني أبدًا أنني أقول إن ولائي لهذا البلد أو هذا النظام يأتي أولًا وقبل ولائي لذاك البلد أو ذاك النظام، بل يعني أن ولائي للمجتمع الذي أجد نفسي أعيش فيه هو ولاء ينمو ويزدهر من خلال ولائي المبدئي للخالق.

الولاء للوطن: مفهوم حديث

وأنا أعتقد أننا بحاجة إلى فهم أعمق لهذه القضية. فلو أنك سألت فلاحًا عاش في جنوب فرنسا في العصور الوسطى كيف يصف نفسه، فإن جوابه سيكون، وبدون أدنى تردد: «أنا مسيحي»، ولعله يقول بعد ذلك أنه من مقاطعة تابعة لأحد النبلاء المحليين، ولعلك إذا ألححت عليه بالقول ستأخذ منه إقرارًا بأن هذا النبيل المحلي له علاقة بعيدة بشخص ما يدعى ملك فرنسا، ولكنني لا أظن أنه كان سيردّ على السؤال المذكور بقوله: «أنا فرنسي».

بمعنى آخر، فمفهوم الولاء التام والشامل للوطن، والذي نربطه الآن بمفهوم الدولة الوطنية، هو مفهوم حديث ويمثل ظاهرة محدودة، وهو مفهوم ـ على أية حال ـ يُبنى على اعتبارات مهمة تتعلق بالتزامنا بالمكان

الذي نجد أنفسنا فيه وبدفاعنا عن أمنه واستقراره، وهو حتمًا مفهوم لا يعني تجاوز هويَّتنا والتخلِّي عنها.

الولاء للأمة

ولكنني أعلم أن «الولاء للأمة» هو مفهوم عميق في الإسلام إلى درجة أن من السخف أن يدَّعي إنسان أن مفهومًا آخر للولاء يسبقه، وقد وجدت في الكتاب الممتاز الذي ألَّفه طارق رمضان عن «الإسلام الغربي» دراسة عن هذه النقطة بالتحديد(٤). وأنا أذكر هنا فقرة من هذا الكتاب شرح فيها كيف فهم النبي محمد ﷺ مفهوم الولاء للأمة، ذلك الفهم الذي أرى أن من المهم أن ندرسه وننشره في هذا البلد. ففي الحديث أن محمدًا ﷺ حثَّ المسلم على أن ينصر أخاه ظالمًا أو مظلومًا، وحين سأله أحد الصحابة سؤالًا غير مستغرب وهو: كيف لنا أن ننصر الظالم؟ ردّ محمد قائلًا: «بأن تردعه عن ظلمه»(٥).

هذا الحديث يشرح بوضوح علاقة الولاء بالمسؤولية، وما ينبغي أن يكون عليه حال الأمة أو الجالية المسلمة. فالولاء هنا ولاء أخلاقي وديني بالمعنى الذي يجعلك مسؤولًا أمام الله، وهو معنى يسمو على

(4)Tariq Ramadan, *Western Muslims and the Future of Islam* (Oxford: Oxford University Press, 2004).

(٥) رواية البخاري، حدثنا مسدد حدثنا معتمر عن حميد عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**، قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: **تأخذ فوق يديه**». أخرجه البخاري (٥٦٤٢)،(٩٢٢٦) ومسلم (١٢١٢) وأبو داود (٥١٨٤) من حديث أنس ـ المترجم.

المفهوم السخيف للوطنية الذي يقول: أنا مع وطني سواء كان على حق أو على باطل! والولاء للأمة بهذا المعنى قريب جدًّا من معنى الولاء الحقيقي للكنيسة الذي يدين به المسيحي، ذلك الولاء الذي يؤمن فيه المرء بالقيم العليا إيمانًا يجعله ينتقد ويرفض أعمال العنف أو الظلم، بل ويلتزم بمساعدة الجميع للعيش في سلام.

***

obeikandl.com

دار الحرب ودار الإسلام

ولكن تحيط بهذا المعنى غيوم من التعقيد والتنوع في مجتمع العولمة المعاصر وعولمة الاتصالات. ومن أراد قراءة المزيد عن ذلك يمكنه قراءة الفصل الثالث من كتاب طارق رمضان المذكور آنفًا، وفيه يشرح بالتفصيل التعقيدات التي تطرحها سهولة الانتقال والاتصال عند المواطن المعاصر. وبالتالي فالقول بأن للمرء، سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، وطنًا أو حتى عددًا من الأوطان، هو شيء يصعب الحفاظ عليه في هذا العالم المعاصر.

وهذا يعني ـ كما يقول رمضان ـ أن الرأي التقليدي القائل بوجود دارين لا ثالث لهما: دار الإسلام ودار الحرب، هو، بكل بساطة، قول لا يصلح لهذا العصر. وقد تبنى رمضان ـ كما فعل آخرون ـ مفهومين بديلين يصلحان كأرضية للفكر المبدع حول طبيعة انخراط المسلمين في مجتمع أغلبيته غير مسلمة، ألا وهما «دار العهد» و «دار الدعوة».

وأنا متأكد من أن هناك آخرين أقدر مني على إغناء هذا الحوار، فما

أنا إلا هاوٍ ودخيلٌ على الموضوع، إلا أنني مطلع بامتنان على عمق وتنوع الحوار الذي يدور حاليًا حول هذا الموضوع.

كل هذا كان حول المعنى الثاني لمصطلح التعددية وما يمكن للمسيحيين والمسلمين استحضاره من تراثهم من أجل التعامل مع مجتمع علماني بالأساس يشتمل على جاليات ذات عقائد متنوعة. وسوف أعود إلى هذه النقطة بملحوظات سريعة، ولكنني أريد إلقاء بعض الضوء الآن على المعنى الثالث من معاني التعددية، وهو المعنى الذي أعتقد أن المسيحيين والمسلمين يمكنهم أن يلتقوا عليه من أجل فهم مشترك وعمل مشترك.

تعددية المجتمع المدني

لقد استخدم مصطلح التعددية أحيانًا في الفكر السياسي للقرن العشرين للتعبير عن ثقافة سياسية لامركزية، ثقافة تتطلع إلى تعددية المراكز الفاعلة في المجتمع، بدلًا من الثقافة التي تعطي الدولة الصلاحية لفرض كل شيء من أعلى إلى أسفل.

فالمجتمع التعددي هو مجتمع تطورت فيه مبادرات وقدرات المجتمع المدني لأقصى درجة ممكنة. وتفترض التعددية بهذا المعنى، وفي هذا السياق السياسي، رؤية بعيدة كل البعد عن الهرمية والمركزية للنظام الاجتماعي، وتتحدى النظرة المتسلطة والقهرية لسيادة الدولة الوطنية والسيطرة المطلقة للهيكلية السياسية.

وللتعددية بهذا المعنى جذور متعددة، خاصّةً في الدراسات المسيحية

التي وُضعت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بل وفي بعض الدراسات اللاهوتية للقرنين السادس عشر والسابع عشر في بدايات الحركة الإصلاحية في أوروبا والتي كانت امتدادًا للإصلاحات التي استهدفت المفاهيم السياسية والاجتماعية.

شرعية الدولة

تتعلق التعددية بهذا المعنى بالإصرار على أن الشرعية لأي نشاط اجتماعي، ولأي التحام أو تجمع على مستوى المجتمع، هي شرعية لا تمنحها الدولة ذات السلطان المطلق لرعاياها التابعين لها، بل على العكس من ذلك تستمد الدولة شرعيتها من نجاحها وإدارتها الخلّاقة للعلاقات بين مؤسسات المجتمع المدني المتنوعة، والفئات الدينية المختلفة، وكذلك فئات المجتمع الأخرى.

فمن الخرافات الكبيرة والمدمرة للحداثة الأوروبية مفهومٌ للتعددية ينادي بعدم وجود أي رابط بين الدولة والفرد، وبأن سلطة الدولة هي قوة مهمة شاملة وشرعية تتحكم تمامًا في مصير الفرد. ويهمل هذا المفهوم حقيقة أن الأشكال البدائية للمؤسسات البشرية لم تكن خاصة ولا حكومية، بل كانت مجرد علاقات مجتمعية وتجارية ودينية في أحيان كثيرة.

ولكن التعددية الحقيقية تكون حين ترتبط شرعية المجتمع بأساليب تسهيله لعمل وحرية وإبداع المؤسسات المستقلة، الدينية منها وغير الدينية، في تعاونها وتعايشها السلمي بعضها مع بعض.

وأعتقد أن هذا المفهوم الجديد للتعددية هو مفهوم لا بد لكل مسيحي ومسلم على حد سواء أن يرحب به ويجده ملهمًا ومبدعًا، إذ ربما يعطينا فرصًا واعدة للتعاون والتفاهم المتبادل، ويمكن أن يبدأ عملية التغيير.

معاني التعددية

إذًا، فهناك ثلاثة معانٍ للتعددية في نظري: تعددية دينية، ولا أعتقد أن المسيحي أو المسلم يمكن أن يقبلا بها بالشروط التي صيغت فيها. وتعددية اجتماعية تتعايش فيها طوائف ذات ماهية وفهم وتراث متنوع. وتعدّدية تقوم على تركيب المجتمع نفسه، حيث يستطيع المسيحي والمسلم أن يجد فرصًا للتفاهم والتعاون والانسجام.

وأنتقل الآن إلى النقطة التالية التي تتعلق بالتعريف الثاني للتعددية، هذا التعريف الذي يثير أحد أصعب وأكثر الأسئلة حساسية وتعقيدًا: هل سيبقى هدف المسلم البراغماتي هو نظام سياسي عالمي ذو صبغة إسلامية؟ فنظام كهذا يمكن أن يكون أملًا وغاية يصعب إدراكها، ولكن هل هذا هو الهدف الذي يجب أن يعمل المسلم من أجله اليوم وغدًا؟ وحتى إن كان هذا هدفًا على المدى البعيد، فكيف السبيل إلى الوصول إليه؟ وهل يعني مجرد العيش وسط غالبية غير مسلمة تنازلًا للمسلم عن كرامته؟

وأشير مرة أخرى إلى الأبحاث العالية المستوى التي كُتبت في السنين الأخيرة حول هذا الموضوع بالتحديد، والتي تطرح التساؤلات عمّا إذا كان الشعور بأن المسلم الذي يعيش في مجتمع غير مسلم سيتنازل عن كرامته؛ هو شعور يعبّر في الحقيقة إما عن وضوح الفكرة بحد ذاتها أو أنه صورة أمينة لأفضل ما طرح في تاريخ الفكر الإسلامي.

لقد شارك تيم وينتر معي ومع الشيخ زكي بدوي في الكثير من الحوارات بين الأديان، وهو عضو فعّال في «ندوة بناء الجسور» التي كانت تجتمع في السنوات الأخيرة، والتي كان للشيخ زكي حضورٌ أساسيّ وخلّاق فيها. لقد كتب تيم وينتر يقول: إن الإسلام لا يحرِّض على العنف لتغيير الإجماع العالمي. وأفسِّر كلامه هذا على أن التجاذبات والمشاكل التي تحدث بسبب التعارض الذى ينشأ أحيانًا بين قانون الدولة وشريعة الإسلام لا ينبغي لها أن تُحلّ بشكل تبسيطي عن طريق القوة التدميرية! إن الطريق لحل هذه المشاكل القانونية، التي أخذت الكثير من الوقت والحياة المهنية للشيخ الراحل زكي بدوي، هي بالتعمق والفهم والاجتهاد، وهي فرصة للتحول في المجتمع نحو إجماع أفضل وأعمق، ولا يصح أن نحلّ مشكلة التعارض والتنافر بين قانون الدولة وشريعة الإسلام بوسائل ساذجة أو طوباوية أو عنيفة. إنها بالأحرى مادة للتفاهم والمناقشة والحوار. وهذه كلها تساهم في عملية تغيير وتحسين وتعميق التوافق العالمي، ولكنها لا تمنح تصريحًا للهروب أو «النفي». وأنا أعلم أن لهذا المصطلح، وفي هذا السياق، وقعًا خاصًّا لدى الطالب المسلم في الغرب.

لقد أشار تيم وينتر في نقاشه حول هذا الموضوع إلى ما كتبته باربارا ميتكاف عن منطقة ديوبند الهندية[٦] من خلال استعراضها لبعض الآراء التي تبناها المسلمون الديوبنديون بتشدد، إذ رأوا أن أيّة دولة هي جزء من دار الإسلام حتى إن لم يطبق فيها إلّا بندٌ واحد فقط من بنود الشريعة!

(6) Barbara Metcalf. *Islamic Revival in British India: Deoband 1860-1900* (USA: Princeton University Press. 1982).

هذا بالتأكيد رأي مثير للجدل، ولكنه يذكرنا ببعض ما في المصادر التاريخية التي تساعد بشكل مفيد على تفصيل موضوع تم اختزاله بشكل قاتل من قبل أولئك الذين يظنون أن الاسلام ذو لون واحد عقائديًّا وفلسفيًّا وأخلاقيًّا وسياسيًّا، وهو من ثم ـ كما يزعمون ـ عنيف وخطير!

الصبر على الدين

لقد كتب تيم وينتر أيضًا عن أهمية «الصبر» في هذا السياق قائلًا: «الصبر الدينيّ لا يَنفَد أبدًا»، أي أنه ينبغي على المسلم في مجتمع غير مسلم ألّا يكون شخصًا يتصف بشكل أساسي بالثورة والاضطراب، بل يمكن، أو ربما يجب، أن يكون موقفه عبارة عن مساءلة ذكية فيها شيء من الأمل في التوصل إلى التوافق الاجتماعي من حوله.

وفي هذا المجال، يجب أن يكون عند المسيحيين والمسلمين الكثير ليقولوه بعضهم لبعض. فالمسيحيون، كما أوضحت سابقًا، ربما كانوا بشكل ما أكثر خبرة بهذا الجانب؛ لأن تراثهم يمنحهم القدرة على الحديث عن تجربة التفكير بأن حياة الإنسان الدينية هي كلها غربة، وبالشعور بأن الأقلية المؤمنة فئة مختارة رغم غربتها في المجتمع. لقد تعودنا، نحن المسيحيين، على تصور أنفسنا كفئة تتعارض مع أي نظام اجتماعي يمكن تصوره، وأُلِفنا الفكرة التي تقول إنه فيما عدا يوم الحساب لن يوجد نظام اجتماعي يطبق شريعة الله على سطح الأرض بشكل كامل.

هذا المفهوم متأصل في الفهم المسيحي للذات، وقد أضفى عليه القديس أوغسطين الكبير في كتابه *«مدينة الله»* في القرن الخامس الميلادي

صبغة كلاسيكية. وفي هذا السياق، يستطيع المسلم حقًّا أن يواجه المسيحي بتحدٍّ مهم.

وأنا لا أتحدث هنا من فراغ، بل أقول هذا وفي ذهني سؤال سألته في إسلام أباد منذ ١٨ شهرًا عندما تجرأت وأقدمت على إلقاء محاضرة في الجامعة الإسلامية تحت عنوان «ما هي الديانة المسيحية؟»[٧] إذ كان أكثر الأسئلة التي سألتها إلحاحًا هو السؤال التالي: لماذا لا تقدّم الديانة المسيحية قانونًا حقيقيًّا يحكم حياة الناس، هل كل ما لديها هو الخلاص الفرديّ للإنسان؟

وقد أجبت بشكل عفوي قائلًا: إن المسيحية ليست تمامًا كذلك. ولكن الواقع هو أن هذا السؤال هو بحد ذاته تحدٍّ حقيقي للمسيحيين، إذ إن لديهم ميلًا حقيقيًّا نحو الفردية، ونحو خصوصية الإيمان، فقد اعتدنا أن نكون أقلية غريبة تنظر بريبة لأي ادعاء بتجسُّد قانون الله بالتاريخ؛ ولذا فما علينا إلا الانصياغ لرغبة الانعزال الفردي وترك الميدان العام للمجتمع نهبًا لسيطرة الفوضى والعنف.

وقد مرت فترات من التاريخ كان سلوك المسيحيين فيها هو هكذا بالتحديد، وأسوأها كانت فترة الاعتزال الجماعي للمسيحيين الألمان في الثلاثينيات من القرن الماضي وترك الساحة للنازية، ذلك الاعتزال الذي استند للأسف الشديد إلى جذور لاهوتية حقيقية في مذهب مسيحي معين.

(7) "What is Christianity?" Text of a lecture given at the International Islamic University Islamabad. Pakistan. http://www.archbishopofcanterbury.org/sermons_speeches/2005/index.html

ولذلك، فقد يتحدى المسلم المسيحي بالسؤال المذكور، ولكن المسيحي قد يضع المسلم أمام تحدٍّ مماثل بسؤاله عمّا إذا كان الإسلام يتضمن ما يمكن أن يسميه المسيحيّ «احتياطيّ اليوم الآخر» في تعامله مع المجتمع؟

وهذا المفهوم الرائع هو من بقايا الفلسفة اللاهوتية المسيحية التي أستسمحكم في استدعائها في هذا المقام، وهو يعني أنه مهما كان هناك من محاولات لبلوغ الكمال في تطبيق شريعة الله أو الوصول إلى العدل الإلهي على الأرض، فإن هناك مجالًا للقول التالي: ولكن هذه ليست هي العدالة الكاملة، ولن تتحقق العدالة الكاملة إلّا يوم الحساب الأخير.

العدالة الكاملة يحققها الله في ملكوته وليس البشر، وهي عدالة ستبقى دائمًا تحثّنا على النقد الذاتي والإحساس بالتواضع مهما حققنا من نجاحات على الأرض. وهذا المعنى في اعتقادي هو معنى إيجابي نستفيده من التراث المسيحي في تعامله ورؤيته للمجتمع.

ولأنه من المحزن وجود عدد من المسلمين، ومن غيرهم من أهل الأديان الأخرى بمن فيهم أبناء ديني، ممن يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة، فإن المسيحيين يستطيعون القول: احذر من تبرير ارتكاب المذابح الوحشية والجرائم اللاإنسانية أثناء محاولتك إحلال العدالة المثالية. وهذا درس تحتاج جميع الأديان إلى تعلمه والاستفادة منه.

وهكذا نتبادل الآراء والعبر والدروس في هذا المجال من مجالات أو معاني التعددية، ولا بد أن نتعلم جميعًا أن يستمع أحدنا للآخر بحرص وصبر وأريحية.

وعلى الرغم من أنني ذكرت آنفًا أن المعنى الثالث للتعددية في إطار المجتمع هو المعنى الذي يمنحنا فرصًا أكبر للتعاون والتبادل، فإن ما ذكرته الآن من تقاطعات وتبادلات يمكن أن يتطور ضمن إطار المعنى الثاني للتبادلية، والذي يمكن أن يمنح أيضًا فرصًا أخرى غير متوقعة للتعاون، هذا إذا تحلينا بالصبر الدينيّ ـ على حد تعبير تيم وينتر ـ لنمضي في الطريق إلى آخره.

عمل مشترك بين المسلمين والمسيحيين

وأريد أن أختم بنقطتين. النقطة الأولى بسيطة جدًّا تتعلق بالمعنى الثالث للتعددية في إطار المجتمع المدني: أن يعمل المسيحيون والمسلمون معًا من أجل تحدي أشكال سيادة الدولة غير القابلة للنقد، أو أنظمة إدارة المجتمع التي تفرض القوانين من أعلى إلى أسفل بدلًا من التشاور والمشاركة، وهذا أمر نستطيع القيام به. وعلى الرغم من أننا قد حققنا بعض الخطوات في هذا المجال، إلا أننا يجب أن نقوم بالمزيد، وقد قرأت بمنتهى السعادة مقالة نيل جيمسون حول التعاون الإسلامي المسيحي في مجال تنظيم المجتمعات[٨].

إنه مجال محلي بسيط وعملي جدًّا يمكن أن ننجز فيه الكثير. وهو طريق لتحد، ليس فقط ما أسميه سيطرة الدولة، وإنما لإلحاح المجتمع الذي يبدو الآن قلقًا أكثر مما يجب، وذلك بالحفاظ على نوع من الحيادية الدينية في الوسط الشعبي.

---

(8) Op.Cit., *British Muslims*.

نحن نعمل معًا وبحق، كتجمعات دينية، على مقاومة الفكرة التي تدعي أن الوضع البدهي لأي مجتمع ناضج يجب أن يكون لادينيًّا، واللادينية هنا ليست فقط بمعنى عدم الالتزام العام بدين معين، بل بمعنى الحجب الكامل لأي رمز أو علامة على الالتزام بأي دين، وطمس أية إشارة إلى جذور دينية لأي تصور أخلاقي أو اجتماعي. هذا النوع من العلمانية هو في رأيي سيئ للغاية ومضرّ بنا كمؤسسات، والحرب الدائرة في هذا الإطار هي محور اهتمام الرأي العام في هذه الأيام.

إننا عندما نطالب بالسماح بأن يظهر الدين للعيان على مستوى المجتمع فنحن لا نطالب بفرض حكم ديني ثيوقراطي على الجميع مثلًا، وإنما نفعل ذلك لأننا نؤمن بأن المجتمع السليم هو الذي تظهر فيه علنًا أعمق الدوافع الأخلاقية لأفراده، ذلك لأننا لو طلبنا من الناس إخفاء دوافعهم الأخلاقية أو مشاعرهم الدينية فإن النتائج لن تكون صحية على مستوى المجتمع.

يقول طارق رمضان في كتابه: يجب أن تستمر فلسفتنا في الحياة في إثراء التزامنا المدني. وهذا القول يعبر بشكل بسيط وفعَّال جدًّا عمّا أقوله هنا. فلا بد لالتزامنا وولائنا المدني من أن يثريا واجبنا المدني في بناء التعايش والتفاهم والعدل بين جميع الجاليات. وهذا يتم عن طريق الشراكة بين الفئات الدينية والهيئات التشريعية والهيئات العلمانية التطوعية، فتعمل كلها معًا وفق خطة ورؤية متفق عليها.

مواطنة ذات مسؤولية دينية

وبتعبير آخر مختلف قليلًا، نحن نتحدث هنا عن دعوة إلى «مواطَنة ذات مسؤولية دينية»، وأنا أريد في هذا المقام أن أؤكد على أهمية هذه المفردات: إنها مواطنة بمعنى المشاركة الواعية في المكان الذي نعيش فيه، فهي لا تخرج عن إطار المسؤولية والقانون المتعارف عليهما في المجتمع، ولكنها في الآن ذاته تعمل من خلال دافع ديني وإحساس بالمسؤولية أمام الله، وليس فقط بالمسؤولية عن نجاح المشاريع أو إرضاء القيادة السياسية التي قد تكون في السلطة في وقت ما. هذا هو الالتزام المدني للمواطنة المسؤولة دينيًّا.

الله والتاريخ

وملحوظتي الأخيرة ملحوظة أكثر شمولية، وهي تنبع من النقاشات التي أثرتُها حتى الآن. إنّ ما تحدثت عنه هو إيمان المسيحيين والمسلمين بالدور الذي تلعبه مشيئة الله في صياغة التاريخ، أي أن نفهم أن التاريخ هو مسألة جدّية عليها لمسات إرادة الله. لقد تعامل الله مع التاريخ الإنساني بجدّية، وكذلك يجب أن نفعل، ولهذا تتشابك حاجاتنا للثقة والمخاطرة والتراث والتفسير والنقد الذاتي بعضها مع بعض. لم تشأ إرادة الله أن نكون جميعًا أمةً واحدة، ولم يرض كذلك ـ كما قال أحد آبائنا المسيحيين ـ أن يهدي الناس جميعًا بحجة لا تُدحض، بل اختار أن يعمل من خلال الكلمات والأفعال والأحداث التي تحتاج إلى إدراك وتفسير وفهم عميق، وشاء أن يغير هذا العالم التاريخي عن طريق إطلاق سلسلة من العلاقات

التاريخية. هذه قناعة تجمع شمل المؤمنين بها من أبناء إبراهيم جميعًا، وهي قناعة لا بد لها أن تتصدى لثلاثة أشكال مختلفة من المفاهيم المغلوطة والتي اكتسبت للأسف شعبية كبيرة في يومنا هذا.

وأول المفاهيم المغلوطة التي نتصدى لها هي عقلانية المجتمع المدني، تلك العقلانية التي تؤمن بأن التاريخ ليس مهمًّا، على زعم أن هناك مجموعة من المبادئ العقلانية البدهية لكل إنسان عاقل، وهي خارجة عن إطار الزمان، بل يزعمون أنه لا بد لأتباع هذه القناعة من صرف النظر عن الوحي والتراث والنظام الاجتماعي. لقد واجه هذا المفهوم الذي ظهر في القرن الثامن عشر الكثير من الانتقادات على أرض الواقع، بل هوجم بعنف في القرنين الماضيين، وعلى الرغم من ذلك فما زال يعتبر الخيار البدهي بالنسبة للعديد من الناس، ولا سيما الإعلاميين منهم.

هناك أشياء يفترض ـ على حد زعمهم ـ أنها واضحة تمامًا ولا تحتاج إلى برهان، ويُنظر إلى من ينكرها على أنه شخص رجعي غريب الأطوار لا يستحق أن يبدي وجهة نظره علنًا!

وأعلم أننا نتفق على الشك في هذا النوع من العقلانية المنعزلة عن الزمان، وذاك الأسلوب في الخروج عن التاريخ، ولكن هناك نوع آخر من الخروج عن التاريخ، نوع يعرفه المسلمون جيدًا، ألا وهو الرأي التبسيطي لبعض الناس والذي يدّعي أن الله قد ترك عباده منذ القرن العاشر الميلادي تقريبًا وحتى يومنا هذا! ويطرح هذا الرأي مشكلة لاهوتية تحدّث عنها تيم وينتر في مقالته ببلاغة فائقة، وهي: هل علينا أن نفترض وجود إله ينسى أن يشارك رعيته في تطورهم وثقافتهم

وفكرهم وفنونهم عبر التاريخ، تلك الجوانب التي تمثل التاريخ الحقيقي للمسلمين؟! إن هذا القول لا يتفق أبدًا مع ما ذكره الله عن نفسه في القرآن. وهذا الاعتقاد الخاطئ بالطبع يعرفه المسيحيون أيضًا، وقد اتخذ صورة ما يسمى بـ«الأصولية المسيحية»، وهذا هو النوع الثالث من سوء الفهم الذي أشرت إليه آنفًا. وفي هذا المقام، يدّعي بعضهم أن الله قد تكلم كلامًا محدّدًا ومفصّلًا يهمّش كلّ تأويل لأيّ غموض أو صعوبات قد تعترضنا على مرّ التاريخ، فالكتاب المقدس هو وحي منزل وفيه إجابة عن كل سؤال يمكن أن يُسأل، وانتهى الأمر!

الأصولية المسيحية

ولكن حقيقة كون الإنجيل كتابًا نُزِّل ليُقرأ، تمامًا كما هو الحال بالنسبة للقرآن، تبدو مبهمة في هذا السياق. فالحقيقة هي أن الإنجيل كتاب قرئ مرارًا وتكرارًا من قبل المسيحيين الذين يستهدون به في نقاشاتهم وتأملاتهم في مجالات حياتهم الفكرية والمادية. ولكن الأصولية شوهت هذا المعنى، والسؤال الذي يطرحه الكثير من المسيحيين على الأصوليين هو السؤال نفسه الذي طرحه تيم وينتر على رفاقه المسلمين. ولنقتبس هنا هذا السؤال من سفر المزامير: «هل نسي الله أن يكون رؤوفًا؟».

هل كان التزام الله بالتاريخ البشري قليلًا لدرجة أنه بعد تنزيله الوحي تنحَّى بثقة إلهية من أن كل شيء قد أصبح واضحًا بعد الآن؟ لا يبدو لي الواقع كذلك، إذ ليس هذا ما تصفه الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية حول كيفية تعامل الله معنا.

لذلك لدينا سبب وجيه لنكون إيجابيين في نظرتنا للتاريخ، وأن نكون فضوليين ومعنيين ومرحبين ومهتمين بالتغيير، ليس لمجرد التغيير بل لكونه طريقًا يقودنا الله من خلاله إلى التبحر في التقاليد التاريخية وعالم الفكر.

***

obeikandl.com

خاتمة

وأريد أن أختم هنا بالقول إن الاختيار ليس بين المسلمين الراديكاليين والمسلمين المعتدلين، ولا بين الأصولية الإسلامية والوسطية الإسلامية، وأنا أستخدم هنا هذه المصطلحات غير الدقيقة فحسب؛ لأنه قد شاع استخدامها، وإنما الاختيار هو بين من يفهمون التاريخ على أنه جزء من الشخصية الإسلامية وبين من لا يؤيدون هذا القول.

وفي المسيحية كذلك؛ ليست الفجوة ببساطة بين الليبراليين والمحافظين، بل هي بين من يتجاوبون ويعملون من خلال التاريخ وموروثه الطويل، سواء خرجوا باستنتاجات محافظة أو غير محافظة، وبين من لا يفهمون أن هناك بعدًا زمنيًّا لعملية التعلم.

الإله الذي نعبد ونقدس ـ في رأيي ـ هو الإله المهتم بالبشر كمخلوقات اجتماعية، البشر الذين يلتزمون بشريعته في حياتهم عبر تاريخ من التغيُّر والاجتهاد والتأويل.

هذا المعنى في اعتقادي هو معنى مشترك بيننا جميعًا، والإبداع في تناوله هو التحدي والفرصة للعيش في مجتمع تعددي بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معانٍ.

لقد كان من شاركونا العيش في هذا المجتمع التعددي مصدر إلهام وعون لنا، وقد شاركونا الرأي في أهمية الاجتهاد، وعلى رأسهم الراحل زكي بدوي الذي سيبقى في ذاكرتي وذاكرة الكثيرين، والذي يسعدني جدًّا أن أهدي هذه التأملات لذكراه العطرة.

***